التفتنا وجدنا في المحسوسات التي حولنا عنصرين ممتازين الواحد عن الآخر وهما الروح والمادّة او المعنى والصورة او غير المنظور والمنظور . فهذان العنصران يتحدان في الشيء الجميل على شكل ان المادي او الصوري او المنظور يشفّ للحواس عن الروحي او المعنوي او غير المنظور وبعبارة أُخرى ان الصورة الظاهرة تشفّ عن المعنى المستتر وراءها . ولما كان هذا المستتر المشفوف عنه روحيًّا فارواحنا نحنّ من وراء الحواس اليه لانه من نوعها فتعطف نحوهُ وتلذُّ بالتمازج معه والاختلاط به . فالجمال في تعريف هؤلاء هو ما يبدو للحواس على اشكال الهيولى من العنصر الروحي السامي الذي هو روح الاشياء وحياتها . ليس ان للهيولى نفسها روحًا تستشفُّها الحواس في ادراك الجمال كما هو تعليم افلاطون وغيره بل ان ما تشفُّ الهيولى عنه هو معنى خالقها ظاهرًا عليها . فكأنهُ تعالى يكلم ارواحنا بجمال ما خلق كما كلم الانبياء بالوحي فاذا شاهدنا الجمال فاضت ارواحنا حمدًا وتسبيحًا . وما احسن ما قالهُ الشاعر الشهير الشيخ ناصيف اليازجي في مناسبة ذلك

خطّت يد الحسن في مصقول جبهته سطرًا ملخّصهُ سبحان من خلقا

قد ظفرنا بالمقالة الآتية لجناب الفاضل اللغوي الشيخ ابرهيم اليازجي الناها في محشد المدرسة البطريركية يوم احتفالها بتوزيع الجزاء فآثرنا اثباتها حرصًا على فائدتها وهي هذه برشيق مبناها وانيق معناها قال حفظهُ الله

اصل اللغات الساميّة

هو بحثٌ اقترح عليَّ على ضيق الوقت وتشتت البال ونزارة المادّة وضعف العُدّة وعلى كونهِ من المباحث التي تباعدت فيها مسافة الخلاف وخفيت اعلام البيان وكثرت الدعاوي وتخلّف الدليل فمن دون الوصول الى غايتهِ تيهٌ سحيق ومن دون ابداء الرأي فيهِ ألسنةٌ حداد وصدورٌ حرار ولكني سأتوخّى فيهِ ما اظنهُ الاشبه والامثل ولعلّي لا اعدم في جانب الحقّ نصيرًا وفي جانب الحلم صفحًا جميلاً

المراد باللغات السامية اللهجة التي كانت على ألسنة ابناء سام بن نوح عليهما السلام ومن اخذ اخذهم وهم سكان القسم الجنوبي من غرب آسية من حدود الارمن شمالاً الى البحر العربي جنوبًا ومن خليج العجم شرقًا الى البحر الاحمر غربًا . وكانت ألسنتهم تنقسم الى ثلاث لغاتٍ في الجملة وهي العربيّة في ناحية الجنوب والعبرانيّة في ناحية الغرب والآرميّة في ناحيتي الشمال والشرق . وهناك لغاتٌ اخرى من نحو الفينيقية والفلسطية من اللغات الدائرة والسامرية من لغات المتأخرين والحبشية من لغات ابناء حام بافريقية نومئ الى بعضها من جانب الكلام اذ ليس لنا من الذرائع المبلّغة الى موضع البحث فيها ما يبسط به الرأي

وبنهيّأ الحكم وحسّبنا الكلام فيما نعلمهُ فاذا استصبَّ لنا الحكم فيهِ لم يمتنع علينا الاستدلال على غيرهِ من جانبٍ آخر

ونحن نورد اولاً رأي كل فريقٍ من علماء هذه اللغات في ايها كان اصلاً لسائرها وتتلقّى كل قولٍ بحجّتهِ وما أُورِد عليهِ من الدفع ثم نعود الى رأي علماء البحث المتجردين عن المتابعة والهوى ونأتي في عرض ذلك بما يعنّ للبصيرة الفاصرة من هذا القبيل وعلى الله سبحانهُ قصد السبيل

فني مقدّمة المتحلين أصالة اللغات علماء العبرانيّة من اليهود وتابعهم كثيرون من مشاهير علماء النصرانية وغيرهم قالوا هي اللغة التي فتق الله بها لسان آدم عليهِ السلام وبقيت في ولدهِ شيث حتى انتهت الى ابرهيم عن طريق عابر ابن سام ولذلك سمّيت بالعبرانية. قالوا وكان عابر خارجاً عن عداد الذين بنوا الصرح فلم يعرض على لسانهِ ما عرض على سائر الألسنة من البلبلة. ويستظهرون لصحّة دعواهم بان كثيراً من الاسماء الواردة في حديث الخلق وما بعدهُ الى الطوفان مثل آدم وعدن وفيشون وجيحون وغيرها اسماء عبرانية . وزعم يوسيفس انهُ وُجد لعهدهِ في هذه الديار عمودٌ من حجر كان منصوباً من قبل الطوفان بأمدٍ طويل عليهِ كتابةٌ بالعبرانية في تلخيص جميع الصنائع والعلوم وانهما كانا عمودين على هذا المثال نصب احدهما شيث والآخر اخنوخ فذهب الواحد في مياه الطوفان وبقي هذا

وادّعت السريان ووافقهم كثيرٌ من مؤرّخي الشرقيين كالمسعودي وابن خلدون وغيرهما ان اصل اللغات كلها السريانيّة ودليلهم في ذلك ان نوحاً والذين كانوا معهُ في الفلك نزلوا بعد الطوفان بارض الجزيرة وما يليها من بلاد ما بين النهرين المجاورة لارمينية حيث استقرّت السفينة ولغة تلك البلاد منذ ئذٍ الكلدانية وهي والسريانية لسانٌ واحد على ما سنبيّنهُ بعد . قلت وهذه الحجّة هي عين حجّة الارمن في مثل هذه الدعوى مع انهم ليسوا من الساميّة في شيء وانما هم فيما ذكروا من سلالة يافث. ويزيدون على ذلك ان الله عز وجل جبل آدم من تربتهم وانزلهُ بارضهم لان الفردوس كان بارمينية وهناك علّة اللسان ولما انقضى امر الطوفان اعاد البنية البشرية الى ارضهم واقرّ السفينة في بلادهم فانتشرت من ثمّ اللغة في سائر الارض فكانت فيها نشأة الانسان الاولى ومنها منبعثهُ الثاني . ولهم في ذلك ادلّة اخرى لنظية من نحو ادلّة اليهود لا نطيل بذكرها

وقالت العرب كان اللسان الاول الذي نزل بهِ آدم من الجنة عربيًّا الى ان بعد العهد وطال فحُرّف وصار سريانيًّا فكان ذلك لسان الناس الى حين الغرق . قالوا ولم يكن في الفلك من لسانهِ العربيّ الاّ رجلٌ واحد يقال لهُ جُرهُم فلما خرجوا من الفلك تزوج إرَم بن سام بعض بناتهِ فمنهم صار اللسان العربيّ في ولدهِ عُوص ابي عاد الى آخر ما ذكروا

فاما حجة اليهود فيقال فيها ان العبرانية لم تكن من لغة ابرهيم بدليل ان عشيرتهُ في حاران كان

لسانها الكلدانيّ وشاهدهُ ما ورد في الكتاب من حديث يعقوب ولابان وأنهما حين تعاهدا في جبل جلعاد ونصبا تلك الجثوة من الحجارة سماها يعقوب جَلْعاد وهي لفظة عبرانية وسماها لابان يَغَرْسَهَدُوثا وهي لفظة كلدانية ومعنى التسميتين واحد اي جثوة الشهادة. ومن هنا يُستدَلّ على ان العبرانية كانت لغة الكنعانيين الذين هاجر ابرهيم اليهم وهم الفلسطيون ومن جاورهم وبهِ يشهد اشعيآه حيث يسمي العبرانية لغة كنعان (الفصل ١٩ : ١٨). واما تسميتها بالعبرانية وأنها منسوبة الى عابَر فان صحّت هذه النسبة اليهِ فانما هي للشعب لا للّغة بدليل ان اهل كنعان كانوا يسمون ابرهيم عبرانيًا وهذا اللقب لم يكن بالنظر الى اللغة قطعًا لِما تقدّم قريبًا. غير انهُ لما ارتحل العبرانيون عن ارض كنعان فمكثوا في مصر احقابًا متطاولة وخرجوا بعد ذلك الى البرّية فاقاموا بها زمانًا وهم في هذه المدّة كلها بين اقوام لغتهم تخالف الكنعانية نُسبت هذه اللغة اليهم وسُمّيت بالعبرانية وعليهِ فاللغة منسوبة الى العبرانيين لا الى عابر كما توهموها. ويزيد ذلك تأييدًا ان جميع الاسماء الكنعانية القديمة من أعلام الناس والمواضع كأيملك وأدوني بازق وقِرْية يَعاريم وغيرها الفاظ عبرانية خالصة مع انها من الاوضاع التي كانت قبل ابرهيم. ولا يصحّ ان يُدّعى انها حُوّلت الى العبرانية لان الاعلام تُحكَى على اصلها والاّ فقد سقط احتجاجهم بما ورد من الاسماء العبرانية قبل الطوفان على ما تقدّم في مقالتهم. على ان العبرانيّ من تلك الاسماء التي يذكرونها قبل الطوفان ليس الاّ الفاظًا معدودة وقد بقي من دونها الفاظ كثيرة بعضها لا ينطبق على لغة من اللغات المتعارَفة البتة وبعضها ينطبق على غير العبرانية فلم يبقَ في ذلك حجّة لاحد. واما مقالة يوسيفس فخبرٌ أبتر لم يشفعهُ تواتر ولم يؤيّدهُ سند ولم يشهد بهِ عيان وهؤلاء المؤرّخون الشرقيون كلهم لم يرد هذا النبأ عن احدٍ منهم ولا سُمع ان هذا العمود نُقل الى بلادٍ اخرى فلا بدّ من بقاء هذه الرواية موقوفة حتى تؤيّد بغيرها

وحجّة السريان مدفوعة بأن بلبلة الالسنة المشهورة كانت في بابل مقرّ اللغة الكلدانية حيث اختلطت الالسنة ولم يعد يتميز بعضها من بعض فالدليل على ان فصيلة ابرهيم سلمت من هذه البلبلة ومن اين يُعلَم ان الكلدانية هي اللسان الذي كان يتكلم بهِ سام والذين نزلوا من الفلك

وحجة الارمن مردودة بمثل ما رُدّت بهِ حجّة السريان للنصّ على ان البلبلة كانت شاملة للالسنة كلها وبأن لغات السواد الاعظم من الامم المعروفة لذلك العهد بقيت بعد البلبلة يشابه بعضها بعضًا ولغة الارمن انفردت بمخالفتهنّ جملةً فهي لذلك ابعدهنّ دليلاً. وبانهُ لو كانت الاسماء القديمة حجّة في مثل هذا لكانت الحجة للعبرانيين لكونها في لغتهم اكثر. وبعد فقد روى هيرودوطس ان الارمن في اصلهم طارئة من فريجية خيّمت بناحية أراراط فان صحّ هذا القول فقد قطعت جهيزة قول كل خطيب

ومقالة العرب عاريةٌ عن السند ولكنهم ألقوا دلوهم في الدلآء فنتركها حتى يتبيّن دليلها. وفي الجملة

فان الدعاوي في ذلك متزاحمة متعارضة فكلّ فتاةٍ بأبيها مُعجَبة وكلّ قومٍ بما لديهم فَرِحون

وهنا أستسمح المعذرة من سادتي علماء الالسنة وجهابذة اللغات عمّا اجترأت به من التعقيب على أحكامهم فما فعلت استخفافًا ولا تزييفًا ولا اتخذت هذه الدالّة بين ايديهم الاّ يقينًا بأني وإياهم آمّ غرض واحد هو احقاق الحقّ ونبذ الباطل. وأسأل اخواني ارباب العصبيّات ان لا يعجلوا الى الموجدة لما اختطت به كل فريقٍ منهم فسيرون عمّا قليلٍ اني معتلٌ في ارضائهم جميعًا وسأثبت لهم بالبيّنات الدامغة ان كل واحدةٍ من لغاتهم اصلٌ قائمٌ بنفسه فينقلبون جميعهم راضين عني ان شاء الله ويكونون نصراتي في وجوه المعترضين

وذلك أن الذي اذهب اليه وليست الأوّل فيه أن تلك اللغات بجملتها كانت اصلاً واحدًا كما نُصّ عليه في حديث البلبلة ودعوى الأصالة للغةٍ منها بخصوصها لا تثبت ولا يمكن ان يقوم عليها دليل والقول بأن في اللغات امّهاتٍ وبناتٍ تولد بعضها من بعض ليس من المذاهب المرضيّة في وجه البحث. انما القول ان كل طائفةٍ من اللغات مهما تبدّلت هيئاتها وتعدّدت فروعها في الظاهر فالاصل محقّقٌ في كل واحدٍ من تلك الفروع مُستصحَبٌ في جميعها على السواء. وما اعتور ذلك الاصل من التباين وتفرّق اللهجة انما عرض بسبب تفرّق المتخلين له وطول انقطاع بعضهم مع ما يضاف الى ذلك من تلوّن الشؤون وتعاقب الاحقاب وما زالت اللغة دائمة التغيّر معرّضةً للزيادة والنقصان شأن الارض وما عليها

وتقرير ذلك ان اللغة نشأت أوّل وضعها بين نفرٍ معدود في اول مجتمعٍ انسانيّ لما تدعو اليه ضرورة التفاهم والتخاطب ثم انقسم اصحابها بعد ما كثروا فصاروا احياءً ثم قُرًى ثم امصارًا ثم ممالك فباينت بذلك السنتهم تباين عاداتهم وملابسهم وسائر خصائصهم. وحسبنا ثبتًا لذلك ما يُرى له من المثل لأيامنا هذه فانّا اذا اعتبرنا هذا اللسان العربيّ في الذين نُقل عنهم من البدو وفيمن اتصل اليهم من اهل الامصار لم نكد نجد قبيلةً الاّ ولها خصائص في منطوقها ولا اهل بلدٍ الاّ ويخالفون اهل البلد الآخر بل نرى ذلك بين القُرى المتجاورة وبين اهل ناحيتين من البلد الواحد. ولنا من شواهد ذلك في التاريخ ما ورد في سفر القضاة من انّ الجلعاديين اصحاب يفتاح حين تعقّبوا رجال افرائيم كانوا اذا رأوا الرجل منهم فانكر انه افرائيميّ يقولون له قل شِبُّولت اي سنبلة وكان بنو افرائيم ينطقون بالشين المعجمة سينًا مهملة فلا يفطن لغرضهم فيقول سِبُّولت فيأخذونه . قلت وهذا الابدال في لغة افرائيم يتزع الى لغة العرب فانك قلّما ترى شينًا في العبرانية الاّ وهي في العربية سين كما ان العكس في اللغتين كثيرٌ وسيأتي الايماء الى ذلك في محلّه . وقد وقع من هذا التباين في لغات العرب ما بين قبيلةٍ واختها وحيٍّ وآخر ما لا يُحصى . فمنه ما هو بالابدال كقولهم في الخِبَاء الخِباع وفي إذَنٌ عِذَنٌ وفي عَنعَنة تميم وقيس . وكقولهم في تميمٍ تَمِيجٌ وفي

أَيِل أَجِل وهي عجعجة قُضاعة . وقولهم في القَرْبُوس القَرَبُوت وفي الناس النات وهي من لغة اليمن وتسمّى الوَتم . ويقولون لَيْشَ اللهمّ لَيْشَ اي لَيْلَك وتسمّى الشَنْشَنة . ومُضَر وربيعة يخصّون هذه الشين بالاشتى يقولون علِيش ومنِش اي عليكِ ومنكِ . ومنهم من يزيدها بعد الكاف يقول عليكِش ومكِش وتسمّى الكشكشة . وبعضٌ من ربيعة يقولون عليكِمْ ومِكِمْ بكسر الكاف وتسمّى الوَكم . ويقولون منهِمْ وبِنهِمْ وتسمّى الوَهم . وفي هذا الكسر ميلٌ الى العبرانية فانهُ يُكسَر فيها ما قبل الميم من كاف الضمير وهائهِ ابدًا . واغرب ما جاء في هذا الباب قولهم تعظّم الليل اي اظلم كانهم ابدلوا من الهمزة عينًا على ما سيأتي في لغة تميم فصار ملحقًا بالرباعيّ فالحقوهُ بزيدهِ . وقول بعضهم دَحًا مَحًا يريد دَعْها مَعْها فخلط المخرجين فتولّد بينها حرفٌ ثالث ومثل هذا مسموعٌ في السنة بعض عامّتنا . ومن ذلك ما هو بتقديم بعض احرف الكلمة على بعض كقولهم الجماس والعجانس وجلنة وجفلة وجعفة وجفعة والحُبارِج والحُبارِج وانفٌ اقمع واقمع وما اطيبهُ وما ايطبهُ وصاعقة وصاقعة ولعمري ورَعملي واضمحلّ وامضمحلّ وشَرْخ الشباب وشخرهُ الى غير ذلك . وكثيرًا ما تنفرد الطائفة منهم بالفاظٍ تختصّ بها من بين سائر العرب او تختلف طائفتان في معنى لفظةٍ واحدة حتى ان كثيرًا من تلك الالفاظ جاء بمعنيين متضادّين وهذا منتهى الخلاف . فمن امثلة الاول القَدَس في لغة اهل الحجاز بمعنى السطل والعواهن للخوافي من السعف والأَبّ في لغة هُذَيل للخصر والشيح للجادّ في الامور والجعاميس للنحل والخَزُومة للبقرة والفَنَج للشيخ والإجّل في لغة اليمن للوياء والعِنك للباب والبَفْش للسواد والشاعبان للهنكبين والنَحْل في لغة اهل المدينة للخشف من التمر ولحارث بن كعب بسمّونهُ الشِيص والطَلْح في لغة طيّ للتين والطَرْق للنخلة والعَتيل للاجير وهذه من لغة جديلة والحَوْف في لغة الشحر للهودج والحَوْش في لغة العراق لشبه الحظيرة والصَعْفَصة في لغة اليمامة للسكباجة وغير ذلك . ومن امثلة الالفاظ المتضادّة قولهم تَجَدَ تستعملهُ عامّة العرب بمعنى خضع وانحنى وهو في لغة طيّ بمعنى انتصب وقولهم رَزَقَهُ اي اناله وهو في لغة الأَزد بمعنى شكرهُ والسُدْفة تستعملها قيس بمعنى الضوء وهي في لغة تميم بمعنى الظلمة وكذلك لبلةٌ غاضية جاءت في لغة بعضهم للمظلمة وفي لغة غيرهم للمضيئة وتقول بنو عُقَيل لَمَقْتُ الشيء اي كتبتهُ وسائر قيس يستعملونها بمعنى محوتهُ وجاءت الخريق للريح الباردة الشديدة وللّيّنة السهلة والجَوْن بمعنى الاسود وبمعنى الابيض والجَلَل للعظيم وللحقير والضَحْضاح للقليل من الماء وللكثير منهُ والصرم للصبح وللّيل ورَتَوْتُ الشيء اذا شددتهُ وإذا ارخيتهُ والغابر بمعنى الماضي وبمعنى الباقي والبَسْل للحلال وللحرام والأَشراط للارذال وللاشراف . ونكتفي بهذا القدر من ذلك كلهِ وقوفًا عند الحدّ الذي يقتضيهِ غرضنا ولو شئنا ان نأتي على المنقول منهُ لاقتضى كتابًا برأسهِ . وهذا كلهُ في لغة أُمّةٍ واحدة ذات مستقرٍّ واحد لم تفارقهُ منذ كانت فما الظنّ بأُمّتين قد افترقتا قرونًا متوالية لا تجمع بينهما ارضٌ ولا تضمّهما صلة (مناقي البقية)